Al-Daleel
مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies

Secularism and the reasons for its appearance in the Renaissance era.. reviewing and criticism

Furqan Abdul-Imam
Ph.D. in Islamic Philosophy, Aalul-Bayt University, Iraq. E-mail: q66255090@gmail.com

Summary

Secularism is defined as a principle based on denying the authority of religion or its authority in managing some or all of people's affairs. This is based on the authority of man to realize the truth and benefit inherent in this world. Secularism had appeared in the era of the European Renaissance and Enlightenment. One of the most important reasons that had led to the appearance of secularism was the church's struggle with science, the second was the French Revolution, and the third was the theory of evolution. Secularism underwent two stages; the first was the moderate secularism and the second was the excessive secularism. Secularism is divided into two kinds: the first is the comprehensive Secularism and the second is the partial Secularism. The reasons for its appearance were of two kinds: one was social reasons, the first of which was the conflict between the Church and science, and the second was the French revolution. The other kind of reasons was an epistemological reason, and it was not but the theory of evolution. We have criticized the epistemological reason, and criticized the premises on which secularism had relied. The first of those premises was the empirical sensitive approach, the second was humanism, and the third was the epistemological ethical relativism. These premises are incomplete and can be rationally criticized.

Keywords: secularism, Renaissance, European Enlightenment, partial secularism, comprehensive secularism.

Al-Daleel, 2022, Vol. 5, No. 18, PP .66-89

Received: 16/10/2022; Accepted: 05/11/2022

Publisher: Al-Daleel Institution for Studies and Research

©the author(s)

الدليل Al-Daleel
مؤسسة الدليل للدراسات العقدية والبحوث
Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies

العلمانيّة وأسباب نشأتها في عصر النهضة.. عرض ونقد

فرقان عبدالإمام

دكتوراه في الفلسفة الاسلامية، جامعة آل البيت، العراق. البريد الإلكتروني: q66255090@gmail.com

الخلاصة

تعرف العلمانية، بأنّها مبدأ يقوم على إنكار مرجعية الدين أو سلطانه في تنظيم شؤون الناس، بعضها أو كلّها، انطلاقًا من مرجعيته الإنسان لإدراك الحقيقية والمنفعة الكامنتين في هذا العالم، وظهرت في عصر النهضة والتنوير الأوروبي، ومن أهم الأسباب التي أدت الى ظهور العلمانية منها صراع الكنيسة مع العلم، والثاني الثورة الفرنسية، والثالث نظرية التطور. ومرّت بمرحلتين، الأولى: العلمانية المعتدلة، والثانية: العلمانية المفرطة، وتقسم إلى قسمين: الأوّل: الشاملة، والثاني: الجزئية، وأسباب ظهورها، وهي على قسمين: القسم الأوّل: أسباب اجتماعية، وهي: الأوّل: الصراع بين الكنيسة والعلم، والثاني: الثورة الفرنسية، والقسم الثاني: سبب معرفي، وهو نظرية التطور، وقمنا بنقد السبب المعرفي، الذي هو عبارة عن علاقة نظرية التطور والفكر العلماني، وأيضًا قمنا بنقد المباني التي اعتمدت عليها العلمانية:الأوّل: المنهج الحسّي التجريبي، والثاني: الانسنة، والثالث: النسبية المعرفية والأخلاقية. وهي مباني غير تامّة ويمكن نقدها عقليًّا.

الكلمات المفتاحية: العلمانية، عصر النهضة، التنوير الأوروبي، العلمانية الجزئية، العلمانية الشاملة.

مجلة الدليل، 2022، السنة الخامسة، العدد 18، ص. 66 ـ 89

استلام: 2022/10/16، القبول: 2022/11/05

الناشر: مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث

© المؤلف

المقدّمة

الفكـر العلمـاني مـن الأفـكار المهمـة والخطـيرة وذات الجـدل الواسـع، وأصبحـت في المنظومـة الفكريـة الغربيـة نهايـة تاريـخ الفكـر السـياسي، حيـث على مـدى قرنـين كاملـين قـدّم الغـرب هـذا الفكـر على أنّـه نهايـة الفكـر، وأنّـه الحـل الذي لا يحتـاج إلى حـلٍّ غـيره، وأنّ التشـكيك فيـه تشـكيك في الخطـوط الحمـر للإنسـان، مـن القيـم والمبـادئ والاعتقـادات، وهـذا الفكـر لـم يظـل حبيـس القـارة الأوروبيـة وحسـب، بـل وصـل إلى جميـع العالـم، وبالخصـوص العالـم الإسـلامي والدول العربيـة، حيـث عمـل أحـد المواقـع إحصائيـةً في عام 2014 في العلاقـة بـين الديـن والدولـة والفصـل بينهمـا، وهـذه الإحصائيـة جـرت في أربعـة عـشر بـلدًا عربيًّـا، وظهـرت مـن هـذه الإحصائيـة نتائـج كبـيرة وخطـيرة، فنسـبة ٪51 يعتقـدون بأفضليـة فصـل الديـن عـن الدولة، ولـم يعـارض ذلـك غـير ٪41، و٪30 يعتقـدون أنّ الشريعـة الإسـلامية ملائمـة للحكـم والسـلطة، وهـؤلاء انقسـموا إلى قسـمين: القسـم الأوّل الذي بلـغ النصـف قائـل بـأنّ الشريعـة ملائمـة لحـدٍّ مـا للدولـة، والقسـم الثـاني قائـل بـأنّ الشريعـة ملائمـة للحكـم والسـلطة جـدًّا، و٪61 قائـل بـأنّ الشريعـة غـير ملائمـة تمامًـا إلى السـلطة والحكـم، وذكـر ٪43 أنّهـم يخافـون مـن الحـركات الإسـلامية السياسـية، و٪40 قائـل إنّهـم لا يخافـون مـن الحـركات الإسـلامية، وأمّـا ٪37 فإنّهـم يخافـون مـن الحـركات العلمانيـة، والشرائـح الـتي جـرى عليهـا الاختبـار شـكّل المتدينـون منهـا ٪87، وغـير المؤمنـين ٪4 [عامـري، العلمانيـة طاعـون العـصر، ص 16]، ومـن هـذا نستكشـف مـدى خطـورة هـذا الفكـر الذي يحاولـون تطبيقـه في كلّ أرجـاء المعمـورة.

ومـن خـلال المنهـج التحليـلي النقـدي نحـاول بيـان ماهيـة العلمانيـة وأسـباب ظهورهـا والمبـاني الـتي تعتمـد عليهـا ونقدهـا، على الشـكل التـالي:

المحور الأوّل: البحوث التمهيدية

أوّلًا: معنى العلمانية

العلمانيـة اصـلاح كـثر الـكلام والجـدل فيـه، حـتّى قـال بعـض المفكّريـن، مـن الأفضـل أن نغـيّر هـذا الإصطـلاح إلى "نـزع القداسـة" أو "الواحديـة المادّيـة"، لكـن لشـيوع هـذا الاصطـلاح وتعارفـه بـين النـاس بـقى عليـه، [المسـيري، العلمانيـة الجزئيـة والشـاملة، ج 1، ص 48]؛ لذلـك نحـاول أن نقتـصر على التعاريـف المهمّـة منـه، فمفـردة العلمانيـة لـم تـرد في الكتـب اللغويـة القديمـة، وأمّـا في الكتـب الحديثـة، فالعلمانيـة: اصطـلاح مترجـم مـن كلمـة (Secularism) في اللغـة الإنجليزيـة،

واستعمل هذا الإصطلاح بلسان آباء الكنيسة بمعنى العالم الزمني، ثمّ تطوّر هذا الاصطلاح واستخدم بمعنى "ما ليس كنسيًّا ولا دينيًّا"، وهو خلاف الديني أو الكهنوتي [مجموعة مؤلفين، المعجم الوسيط، ج 2، ص 624]، أو العامّي الذي ليس بإكليريكي، والكيرُس أو الإكليرَس: جماعة مفرزون ومكرّسون لخدمة الكنيسة المسيحية كالشمامسة والقساوسة والأساقفة ويقابلهم العلمانيون، يونانيتها: كليرس ومعناه قُرعة؛ لأنّهم كانوا في القديم ينتخبون بالقُرعة، الواحد إكليريكي جمعه كليريكيون [البستاني، محيط المحيط قاموس مطول للغة العربية، ص 628]، وقد أطلق هذه المصطلح لأوّل مرّة في عام 1648 م، عند نهاية حرب الثلاثين عامًا، وهو بداية تاريخ نشوء الدولة الحديثة وتكوّنها. [المسيري، العلمانية تحت المجهر، ص 11]

وأوّل من استعمل هذا المصطلح بمعناه المتعارف اليوم الكاتب الإنجليزي جورج هوليوك (George Holyoake) في عام (1851)، وأراد منه فصل النظام الاجتماعي عن السلطان الديني [Holyoake, The Origin and Nature of Secularism, p. 51]، وعرّفت أيضًا بأنّها: فصل الدين والمعتقدات الدينية عن السياسة والحياة العامة [انظر: الناهي، المصطلحات الخاصة بالمنظمة العربية، ص 206]، وأيضًا: هي العقيدة التي ترى إبعاد الدين عن الدولة والتعليم والأخلاق، وأن تكون جميعها مستقلّةً وبعيدةً عن تأثير الكنيسة والمؤسّسات الدينية، وأن يرى الإنسان أنّ العقل هو المصدر لا الدين، وبالتالي رفض كلّ الغيبيات وما وراء الطبيعة [الباز، العلمانية جذورها وأصولها، ص 11]، وكذلك عُرّفت: بأنّها إقصاء المعرفة الدينية عن مجال الحياة والسياسة، فالحكومة العلمانية هي: الحكومة التي لا منافاة بينها وبين الدين، ولكنّها لا تجعل الدين أصلًا لمشروعيتها ولا أساسًا لبرنامج عملها [سروش، مدارا و مديريت، ص 423]، وتعرّف دائرة المعارف البريطانية «العلمانية: بأنها حركةٌ اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها» [محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ص 445]، وقد قسّمت دائرة المعارف الإلحاد إلى قسمين: إلحاد نظري، وإلحاد عملي، وجعلت العلمانية ضمن الإلحاد العملي.

وورد في دائرة المعارف الأمريكية أنّ: «العلمانية الدنيوية هي: نظام أخلاقي أُسّس على مبادئ الأخلاق الطبيعية، ومستقلٌّ عن الديانات السماوية، أو القوى الخارقة للطبيعة» [علي جريشة، الاتّجاهات الفكرية المعاصرة، ص 85].

فالعلمانية في الاصطلاح: هي دعوةٌ إلى إقامة الحياة على غير الدين، وتعنى في جانبها السياسي بالذات اللا دينية في الحكم، وهي اصطلاح لا صلة له بكلمة العلم والمذهب العلمي. [الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص 36]

والتعريف المختار والشامل لأقسام العلمانية التي سوف تأتي، يكون على النحو التالي: «مبدأ يقوم على إنكار مرجعية الدين أو سلطانه في تنظيم شؤون الناس، بعضها أو كلّها، انطلاقًا من مرجعية الإنسان لإدراك الحقيقية والمنفعة الكامنتين في هذا العالم» [عامري، العلمانية طاعون العصر، ص 99].

وأمّا مفردة العلمانية من ناحية الجذر اللغوي، فيوجد تحقيق للدكتور سامي عامري، في كتابه "العلمانية طاعون العصر"، حيث يذكر فيه أنّ لفظ "علماني" لفظ خاطئ وأن الصحيح بزيادة الألف "العالماني"، ويذكر الكثير من الأدلّة على ذلك، ومنها ما ذكره المستشرق برنارد لويس (Bernard Lewis)، حيث قال: «انتشار التأثير الغربي اعتبارًا من القرن التاسع عشر جعل المسيحيين الناطقين بالعربية ـ الذين كانوا كثيرًا ما يتلقّون تعليمهم في المدارس الغربية، والذين كانوا أكثر انفتاحًا على الأفكار الغربية ـ يضطلعون بدورٍ رئيسٍ في نقل الأفكار. فكان أن قدّم المعجم المسيحي جانبًا مهمًّا من المفردات الجديدة التي أسهمت في تشكيل العربية المعاصرة. وكان من المصطلحات المسيحية التي شاع استعمالها مصطلح "عالماني" الذي تحوّل فيما بعد إلى "علماني"، ويعني حرفيًّا: ما له علاقة بالعالم؛ أي: دنيوي. وأصبحت الكلمة مرادفة لمصطلح: الزمني، وغير الديني، وغير الكنسي جميعًا. وابتدعت في وقتٍ لاحق كلمةٌ دخيلةٌ مترجمةٌ هي "روحاني" المشتقّة من "روح" للدلالة على المعنى المضادّ. ومن عهد قريب، نسي الناس أصل كلمة "عالماني" واشتقاقها المسيحي، وحرّفوها في النطق إلى "علماني" المشتقّة من "العِلم". وأسيء فهمها؛ إذ أصبحت تشير إلى مذهب من يزعمون وجود تعارضٍ بين العلم البشري والتنزيل الإلهي» [عامري، العلمانية طاعون العصر، ص 59 و60].

ثانيًا: عصر النهضة (Renaissance)

اتّفق المؤرّخون على أنّ أوروبّا عاشت فترةً طويلةً من التخلّف والظلام والجهل، وسمّيت هذه الفترة بعصر القرون الوسطى أو العصر الوسيط، والذي امتدّ حتّى أواسط القرن الخامس عشر، وفي رأي آخرين إلى أواسط القرن السابع عشر، وبغضّ النظر عن التحديد للمدّة الزمنية، ففي أواخر هذا العصر شهد تغيير شديد الأهمية أدّى إلى انتقال القارّة الأوروبّية إلى عصر جديد وحافل بالتقدّم، من حيث الأحداث التاريخية والاجتماعية والفكرية والإصلاح الديني والثورات والتطوّرات العلمية والصناعية والإنتاج الحرفي والزراعي، التي تركت أثرها إلى زماننا الحالي، وإنّ التغيّر والتجديد لم يكن اعتباطيًّا، بل كان له أسباب ومؤثّرات أدّت به إلى هذا الشكل الجديد الذي لم يكون موجودًا في المدّة التي امتدّت من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر، فالخبرة التراكمية التي أدّت إلى الإنتاج المادّي وتسريع عملية

تراكم المال في البلدان الأوروبية، ولعدّة عوامل وأسباب أخرى ظهر عصر النهضة الذي هو عبارة عن حركة ثقافية انتشر فيها التجديد والازدهار في التعليم والإصلاح التعليمي، والتطوّر في السياسة، وفي الأدب باللغات المحلّية، وفي الفلسفة، وفي التقنيات الصناعية، وهذا العصر هو الواسطة في انتقال أوروبا من العصر الوسيط الى العصر الحديث، ولهذا العصر رواد ومؤسسون كثيرون، كفرانشيسكو بتراركا أو بترارك (Francesco Petrarca)، الذي كان يلقب بأبي الإنسانية، وليوناردو دافينتشي (Leonardo da Vinci)، الذي كان مشهورًا بالهندسة والفنّ والنحت والموسيقى وفي الفلك والرياضيات والفيزياء والجيولوجيا وكثير من الفنون والعلوم، و ميكيلانجيلو بوناروتي (Michelangelo Buonarroti)، الذي كان معروفًا بالشعر والرسم والنحت والهندسة، وكثير من رجال الفن والعلم والثقافة، ومن أهمّ إنجازات عصر النهضة هو جلب التراث الإغريقي بتمامه إلى الغرب، وقام مانويل كرايسالريس (Manuel Chrysoloras) بتدريس اليونانية في مدارس فلورنسا، وربطها بالمناهج الدراسية الأوروبية، حيث دمجت النصوص الإغريقية الأدبية واللاهوتية والتاريخية في المناهج الأوروبية. [انظر: البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص 402؛ كمال مظهر أحمد، النهضة، ص 5 - 11]

ثالثًا: عصر التنوير الأوروبي (Age of Enlightenment)

هو حركة فكرية وثقافية وسياسية واجتماعية وفلسفية، هيمنت على عالم الأفكار في القارة الأوروبية خلال القرنين السابع والثامن عشر في أوروبا، وبدايته من إنجلترا، ولكن الدور الكبير كان في فرنسا، وكان شعار رجال التنوير حقوق الإنسان، ومنهجهم في قبول الحقائق العقل، والهدف من هذه الحركة قمع الفكر الكنيسي المتسلّط والذهاب إلى سلطة العقل، وخلق مجتمع يتمتّع بالحرّية والمساواة والعدالة، ويقرّر مصيره بنفسه، وأوّل من عرف التنوير الأب مسيلي (1725 م) في كتابه "الوصية"، حيث قال: «إنّ نور العقل الطبيعي هو وحده الكفيل بأن يقود الناس إلى الحكمة والكمال العقلي» [السني، الثورة وبريق الحرّيّة، ص 95]، وعرّف كثير من الفلاسفة التنوير، حيث عرّفه موسى مندلسون (Moses Mendelssohn): «إنّ كلًّا من المعرفة والثقافة والتنوير تعديل للحياة الاجتماعية ... ويندرج تحت المعرفة كلّ من الثقافة والتنوير. وتهتم الثقافة بالجانب العملي ... بينما يهتمّ التنوير بالجانب النظري، أي يهتمّ بالمعرفة العقلانية والموضوعية وقدرة الذات على التفكير في الأشياء الموجودة في الحياة الإنسانية تبعًا لأهمّيتها وتأثيرها في تحقيق حياة الإنسان» [المصدر السابق]، وأيضًا الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانط (Immanuel Kant)، إذ أجاب عن ماهية التنوير في مقال نشر له في

مجلّة برلين سنة 1784 م، تحت عنوان "ما هو التنوير؟" وقال فيه: «إنّه خروج الإنسان عن مرحلة القصور العقلي وبلوغه سنّ النضج أو سنّ الرشد» [المصدر السابق]، وعرف القصور العقلي بأنّه: «التبعية للآخرين وعدم القدرة على التفكير الشخصي أو السلوك في الحياة أو اتّخاذ أيّ قرار بدون استشارة الشخص الوصي علينا» [إريك هوبزباوم، عصر الثورة، ص 436]، وقام بصرخة مدوية قال فيها: «اعملوا عقولكم أيّها البشر! لتكن لكم الجرأة على استخدام عقولكم! فلا تتواكلوا بعد اليوم ولا تستسلموا للكسل والمقدور والمكتوب. تحرّكوا وانشطوا وانخرطوا في الحياة بشكل إيجابي متبصر، فالله زوّدكم بعقول وينبغي أن تستخدموها» [المصدر السابق]، والمبدأ الأساسي في التنوير عند كانط: «كن شجاعًا واستخدم عقلك» [السني، الثورة وبريق الحرية، ص 95]، ومن أهمّ مميّزات هذا العصر ظهور الثورات، كالثورة الفرنسية، وأيضًا ظهور حركات فكرية كثيرة، وتيّارات فلسفية كبيرة، كفلسفة ديكارت (René Descartes)، الذي يعدّ أبا الفلسفة الحديثة، وفلسفته قائمة على الشكّ، ومن خلال الشكّ يبدأ ببناء الرؤية الكونية، وأولى المراتب التي يبني عليها هرم الوجود (الكوجيتو) «أنا أفكر إذن أنا موجود»، ويعتبر ديكارت أوّل من فصل بين الذات والواقع؛ لذلك ظهرت بعده فلسفات، كالفلسفة التجريبية الحسّيّة، وأبرز فلاسفتها جون لوك (John Locke) وباركلي (George Berkeley) وديفيد هيوم (David Hume)، والفلسفة العقلية، وأبرز فلاسفتها سبينوزا (Baruch Spinoza) ولايبنتز (Gottfried Leibniz)، وصار الصراع بينهما، وهؤلاء الفلاسفة أول من قاموا بفصل الدين عن الدولة، ففي كلمات الفيلسوف العقلاني الهولندي باروخ سبينوزا (1632ـ1677) الذي يمثّل أبرز الفلاسفة الذين اعتقدوا بالفصل بين السلطة والحكومة والدين، حيث يقول في كتابه "رسالة في اللاهوت والسياسة": «لا يلائم نظام الحكم الثيوقراطي[1] إلّا شعبًا معزولًا يريد أن يعيش دون علاقات مع الخارج. مغلقًا على نفسه داخل حدوده، ومنفصلًا تمامًا عن باقي العالم، لا شعبًا يدخل بالضرورة في علاقات مع الشعوب الأخرى» [سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص 411]، ويقول في نصٍّ آخر له: «ومن الخطورة على الدين وعلى الدولة على السواء إعطاء من يقومون بشؤون الدين الحقّ في إصدار القرارات أيًّا كانت، أو التدخّل في شؤون الدولة وعلى العكس يكون الاستقرار أعظم إذا اقتصروا على الإجابة على الأسئلة المقدّمة إليهم والتزموا في أثناء ذلك بالتراث القديم الأكثر يقينًا والأوسع قبولًا بين الناس» [المصدر السابق، ص 426] ويقول الفيلسوف جون لوك في رسالته الشهيرة عن "التسامح" سنة 1689 م: «أقول من أجل

1- مصطلح (ثيقراطية) مأخوذ من اللغة اليونانية، وهو مركب من مفردتين، الأولى: هما ثيو وتعني الدين، والثانية: قراط وتعني الحكم، والمراد من هذا الاصطلاح حكم رجال الدين، أو حكم الدولة المستند إلى الإله.

هـذا كلّـه ينبـغي التميـيز بدقّـة ووضـوح بـين مهـام الحكـم المـدني والديـن، وتأسـيس الحـدود الفاصلـة والعادلـة بينهمـا، وإذا لـم نفعـل هـذا فلـن تكـون هنـاك نهايـة للخلافـات الـتي ستنشـأ على الدوام بـين مـا يملكـون الاهتمـام بصالـح نفـوس البـشر مـن جهـة، ومـن يهتمـون بصالـح الدولـة مـن جهـة أخـرى» [جـون لـوك، رسـالة في التسـامح، ص 23]، ويقـول في نـص آخـر: «مـن أجـل الوصـول إلى ديـن صحيـح، ينبـغي على الدولـة أن تتسـامح مـع جميـع أشـكال الاعتقـاد دينيًّـا أو فكريًّـا أو اجتماعيًّـا، ويجـب أن تنشـغل في الإدارة العمليـة وحكـم المجتمـع فقـط، لا أن تنهـك نفسـها في فـرض هـذا الاعتقـاد ومنـع ذلـك التـصرّف، يجـب أن تكـون الدولـة منفصلـة عـن الكنيسـة، وألّا يتدخّـل أيٌّ منهمـا في شـؤون الآخـر، هكـذا يكـون العـصر هـو عـصر العقـل، ولأوّل مـرّة في التاريـخ البـشرى سـيكون النـاس أحـرارًا، وبالتـالي قادريـن على إدراك الحقيقـة» [المصـدر السـابق، ص 26]، واعتـبر البعـض ان هـذه الرسـالة هي الـتي شـيدت العلمانيـة في القـرن السـابع عـشر، وقـام بفصـل بـين الحكومـة والسـلطة والديـن.

المحور الثاني: مراحل العلمانية

مرت العلمانية بمرحلتين:

المرحلة الأولى: العلمانية المعتدلة

ظهـرت في القـرن السـابع عـشر والثامـن عـشر، وإن كان فيهـا الديـن أمـرًا شـخصيًّا فرديًّـا، ولكـن لـم تسـلب العلمانيـة كلّ القيـم الخاصّـة بالديـن المسـيحي، بـل قـام بقبـول بعـض مبادئهـا، وقـام بإخضـاع الديـن المسـيحي للعقـل، وليـس للدولـة أيّ علاقـة ورابطـة بـه، إلّا أنّ الدولـة لا بـدّ لهـا مـن حمايـة الكنيسـة وحمايـة ضرائبهـا، ومـن أبـرز روادهـا فولـتير (Voltaire) (1694 ـ 1713 م) في فـرنسا، حيـث يقـول: «هنـاك قانـون طبيعي مسـتقل على الاتّفاقـات الإنسـانية ... يبـدو لي أنّ معظـم النـاس قـد أخـذوا مـن الطبيعـة حسًّـا مشـتركًا لسـنّ القوانـين» [فولتـير، قامـوس فولتـير، سلسـلة تـراث الإنسـانية، ج 8، ص 207].

ويقـول في نـص آخـر: «إنّ ديـن أهـل الفكـر ديـن رائـع خـالٍ مـن الخرافـات والأسـاطير المتناقضـة وخـالٍ مـن العقائـد المهينـة للعقـل والطبيعـة ... لقـد منـع الديـن الطبيـعي آلاف المـرّات المواطنـين مـن ارتـكاب الجرائـم ... أمّـا الديـن المصطنـع فإنّـه يشـجع على جميـع مظاهـر القسـوة ... كمـا يشـجّع على المؤامـرات والفـتن وعلى أعمـال القرصنـة وقطـع الطريـق ... ويسـير كلّ فـرد نحـو الجريمـة مـسرورًا تحـت حمايـة قدّيسـه» [المصـدر السـابق].

وجـان جـاك روسـو (Jean-Jacques Rousseau) صاحـب كتـاب "العقـد الاجتمـاعي" الذي أطلـق عليـه إنجيـل الثـورة الفرنسـية. [المسيري، العلمانيـة الجزئيـة والعلمانيـة الشـاملة، ص 16]

المرحلة الثانية: العلمانية المفرطة

تسـمّى بالثـورة العلمانيـة، وهي ظهـرت في العهـد المـادّي الحـسّي وفي القـرن التاسـع عـشر ومـا بعـده، وأبـرز مـن قـال بهـا الفيلسـوف كارل ماركـس (Karl Marx)، وفيوربـاخ (Ludwig Feuerbach) وهي أشـدّ مـن المرحلـة الأولى حيـث قامـت بإلغـاء وفصـل الديـن بالكلّيّـة، وأدّى هـذا إلغـاء الى ظهـور السـلطة الفرديـة الـتي هي سـلطة جماعـة العمـل أو المجتمـع أو الدولـة أو الحـزب، يقـول ويلـز: «يناصبـون الأديـان عـداوةً عميـاء» [انظـر: سـفر الحـوالي، العلمانيـة.. نشـأتها وتطورهـا وآثارهـا في الحيـاة الإسـلامية المعـاصرة، ص 165]، ويقصـد مـن ذلـك الكتّـاب الذيـن كتبـوا دائـرة المعـارف بزعامـة ديـدرو (Denis Diderot).

المحور الثالث: أقسام العلمانية

قسمت العلمانية إلى قسمين:

القسم الأوّل: العلمانية الشاملة

هي فصـل القيـم الإنسـانية والأخلاقيـة والدينيـة عـن الحيـاة في جانبيهـا العـامّ والخـاصّ، فتجعل مـن العالـم مـادّةً مـن دون قداسـة ولا قيـم، فـهي تتعامـل مـع الـرؤى الكلّيّـة والنهائيـة، ويتفـرّع منهـا نتائـج خطـيرة، فتكـون أداتهـا المعرفيـة والمنهجيـة ومصـدر معرفتهـا الحـسّ والمـادّة، وأيضًـا المصـدر الأخـلاقي عندهـا المعرفـة المادّيـة، والإنسـان عندهـا عبـارة عـن جسـد ومـادّة خاليـة مـن كلّ بعـد مجـرد وروحـاني. [انظـر: المسـيري، العلمانيـة الجزئيـة والعلمانيـة الشـاملة، ص 16؛ عامـري، العلمانيـة طاعـون العـصر، ص 69]

القسم الثاني: العلمانية الجزئية

تعـني فصـل الديـن عـن الدولـة، ولا تتعامـل مـع الـرؤى الكليـة والشـاملة والنهائيـة؛ لذلـك سـمّيت بالجزئيـة؛ لأنّهـا لا تنكـر الكبريـات الكليـة، بـل تحـدّد جـزءًا مـن المنظومـة المعرفيـة وتقيدهـا، وظهـرت في المراحـل الأولى مـن مراحـل العلمانيـة الـتي ظهـرت في الغـرب، ولكنّهـا همّشـت وتلاشـت في المراحـل المتأخّـرة لتطـوّر العلمانيـة؛ لأنّ العلمانيـة تطـوّرت وشـملت كثـيرًا

مـن مجـالات الحيـاة، سـواءٌ كانـت السياسـية أو الاقتصاديـة والاجتماعيـة، ودخلـت في كلّ شيء، وصـارت القانـون الرسـمي لكثـير مـن بـلدان العالـم. [انظر: المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ص 16؛ عامـري، العلمانيـة طاعـون العـصر، ص 69]

المحور الرابع: أسباب نشأة العلمانية

أوّلًا: الأسباب الاجتماعية

1ـ صراع الكنيسة والعلم

كانـت أوروبـا في فـترة حكـم الكنيسـة، تعيـش ظـروف قاهـرةً وقاسـيةً، حيـث طـغى رجـال الكنيسـة أشـدّ الطغيـان، إذ شـمل جميـع النـواحي سـواء كانـت اقتصاديـةً أو علميـةً أو دينيـةً أو اجتماعيـةً، وكلّ هـذا تحـت غطـاء القداسـة والرهبنـة والعبـادة، فكانـت الكنيسـة تتدخّـل في كلّ شيء، وتفـرض شريعتهـا المحرّفـة على كلّ النـاس، كتحريـف وحدانيـة الله الواحـد والقـول بالأقانيـم الثلاثـة (الأب والابـن وروح القـدس)، وفرضـت هـذه العقيـدة بالإجبـار وجعلـت اللعـن على مخالفهـا، وسـفكت الدمـاء على هـذه العقيـدة المحرفـة، وعذّبـوا مخالفيهـا بأشـدّ أنـواع التعذيـب والويـلات. [انظـر: الحـوالي، العلمانيـة.. نشـأتها وتطورهـا وآثارهـا في الحيـاة الإسـلامية المعـاصرة، ص 36؛ أحمـد شـبلي، المسـيحية، ص 256]

وأيضًـا كثـير مـن العقائـد الـتي جعلـت النـاس في مقابـل الكنيسـة كالتعميـد والعشـاء الربّـاني والخمـر الذي يرمـز إلى دم المسـيح الذي سـفك، وعقيـدة الصليـب وحملـه، وتقديـس النـاس له، وأيضًـا عقيـدة الخطيئـة الموروثـة، الـتي تعـدّ مـن أوضـح العقائـد بشـاعةً وخطـأً؛ إذ يعـذّب الله البشريـة بسـبب خطـإ النـبيّ آدم الذي يمثـل الأب بالنسـبة إلى البشريـة جمعـاء، ثـمّ جـاء المسـيح عيـسى عليه السلام ليضـحّي ويصلـب ويكفّـر عـن ذنـب النـبي آدم والبشريـة كافّـةً. [أحمـد شـلبي، المسيحية، ص 169؛ محمـد أبـو زهـرة، النصرانيـة، ص 129]

والكنيسـة أيضًـا وافقـت على النظـام الإقطـاعي، حيـث وصلـت الأمـلاك الإقطاعيـة حـدًّا لا يتصـور، يقـول المـؤرخ الشـهير ديورانـت (William Durant) في كتابـه "قصّـة الحضـارة": «أصبحـت الكنيسـة أكـبر مـلاك الأراضي وأكـبر السـادة الإقطاعيـين في أوروبـا، فقـد كان ديـر "فـلدا" مثـلًا يمتلـك 15000 قـصر صغـير، وكان ديـر "سـانت جـول" يملـك 2000 مـن رقيـق الأرض، كان الكويـن فيتـور أحـد رجـال الديـن سـيّدًا لعشريـن ألفًـا مـن أرقّـاء الأرض، وكان الملـك هـو الذي

يعيّن رؤساء الأساقفة والأديرة ... وكانوا يقسمون يمين الولاء لغيرهم من الملّاك الإقطاعيين، ويلقبون بالدوق والكونت وغيرها من الألقاب الإقطاعية ... وهكذا أصبحت الكنيسة جزءًا من النظام الإقطاعي. وكانت أملاكها الزمنية: أي المادّية، وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية ممّا يجلّل بالعار كلّ مسيحي متمسّك بدينه، وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الدين، ومصدرًا للجدل والعنف بين الأباطرة والباباوات» [ديورانت، قصة الحضارة ج 14، ص 425].

وأنشأت الكنيسة محاكم للتفتيش وملاحقة حملة الأفكار المخالفة لهم، وأبرز مصداق لذلك نيكولاس كوبرنيكوس (Nicolaus Copernicus) الذي قال بمركزية الشمس، بخلاف ما كان سائد من مركزية الأرض، فحكم عليه بالإعدام لأنّه مخالف لأفكار الكنيسة، وأيضا جوردانو برونو (Giordano Bruno)، الذي اعتقد بأنّ النظام الشمسي واحد، وهو تغطي جميع الكون، وأن الكون لا نهائي، وأيضًا حكم عليه بالهرطقة بتهمة إنكار العقائد الكاثوليكية، وغاليليو غاليلي (Galileo Galilei) الذي صنع تلسكوبًا استوحى فكرته من نظرية كوبرنيكوس، ونتيجة ما تقدّم أدّى بالناس إلى النفور من الدين والكنيسة، وإلى وقوف أوروبا ضدّ الكنيسة وطغيانها. [انظر: سيد أحمد فرج، جذور العلمانية، ص 12؛ القفاري، الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص 103]

2ـ الثورة الفرنسية عام 1789 م

تعدّ أوّل ثورة ليبرالية في التاريخ، ودامت عشر سنوات، وكان لفلاسفة عصر التنوير الأثر الكبير في هذه الثورة كفولتير ومونتيسكيو (Montesquieu) وجان جاك روسو، وشعار هذه الثورة: الحرّية والمساواة والإخاء، و"اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسّيس"! وظهور هذه الثورة يرجع إلى عدّة أسباب: [الحوالي، العلمانية.. نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، ص 172]

أ ـ النظام الملكي الفرنسي الظالم

ب ـ النظام الاقتصادي المجحف، ويعدّ من أهمّ أسباب قيام الثورة؛ إذ إنّ النظام الاقتصادي نظام اقطاعي، والكنيسة أكبر الملّاك الإقطاعيين، ومن هذا وجدت في تلك الفترة طبقتان: 1ـ الأسرة المالكة والحاكمة والأشراف. 2ـ طبقة رجال الدولة والباباوات، فاتّحد الباباوات والأشراف ضدّ الفقراء الفلّاحين!

جـ ـ قيام الثورة الأوروبية واحتكاك الشعب الأوروبي بالمسلمين، وأبرز واتم مصداق للاحتكاك الحروب الصليبية.

د ـ ومن أهم الأسباب لقيام الثورة في فرنسا قربها الجغرافي من العالم الإسلامي (الأندلس)، والبعد عن مركز البابوية في روما، ففي سنة 1787 م فرضت الدولة ضرائب جديدة مجحفة على الفقراء، فصار الجوع والعطش ونقص المؤن، ونتيجة ذلك اتّفق العمال والطبقات الفقيرة والمتوسطة البورجوازية على السيطرة على الدولة وأخذ الحق منها، وانتهت بسيطرة البورجوازية من خلال التحالف مع نابليون. [انظر: هوبزباوم، عصر الثورة، ص 439]

وتمخّضت عن الثورة نتائج بالغة الخطورة، فقد ولدت لأوّل مرّة في تاريخ أوروبا المسيحية دولة جمهورية، لا دينية، ذات قانون ليبرالي، وتطالب بحقوق الإنسان، وجعل الحكم جمهوريًّا بدل الحكم الملكي، وانتزاع الملك والإرث من الحكام ورجال الكنسية، وأن الإنسان هو المحور بدل الله تعالى، وتركّز على الحرّيّة الشخصية والدينية بدلًا من دين الكنيسة، وأنّ معيار الأخلاق هو الإنسان والاجتماع وليس الدين، وأنّ الدين وضعي بدلًا من دين البابا واوات. [انظر: القفاري، الموجز في الأديان، ص 76]

وهذه الثورة صارت مفتاح للثورات التي بعدها، حيث شهدت أوروبا الكثير من الثورات بعد هذه الثورة، ومن الطبيعي أنّ مثل هذا التغيير ـ الذي حصل في كلّ شيء نتيجة الثورة ـ يؤدّي إلى خلل في منظومة الاخلاق والقيم والمبادئ، وشهدت أوروبا في هذه الفترة العديد من الاتّجاهات الفكرية غير المنضبطة، ونتيجة هذا صار ينظر إلى الدين كأنّه تراث قديم لا بدّ أن يوضع في المتحف الحجري [الحوالي، العلمانية.. نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، ص 176]، وامتدّ تأثير هذا القرن على ما بعده، حيث أثّر في ظهور نظرية التطوّر التي ظهرت في القرن التاسع عشر.

ثانيًا: السبب المعرفي: نظرية التطوّر

بعد رحلة طويلة دامت لسنوات ألّف تشارلز داروين (Charles Darwin) كتاب "أصل الأنواع" سنة 1859 م، وبسب التفسيرات الباطلة التي فسرت هذه النظرية، التي أحدثت انقلابًا فكريًّا وعمليًّا في الكثير من المعارف والعلوم، وأحدثت ثورةً وضجّةً علميةً لم يعهد لها نظير في الفكر الأوروبي، وأصيب الايمان الأوروبي بنقص وفقدان حقيقي، وما يزال تأثيرها إلى عصرنا الحاضر.

إنّ أصل النظرية بيولوجية، وترى أنّ الحياة ظهرت على شكل بروتوبلازم، والأصل والأساس لجميع الكائنات كائن أحادي الخلية؛ لذلك يعتقد تشارلز داروين بأنّ جميع الكائنات ذات

الملايين من الخلايا المعقّدة وذات الدقّة والرتبة العالية جاءت من هذا الكائن البسيط ذي الخلية الواحدة والمرتبة الدانية، وبان نشوء وتطوّر الحياة في الكائنات العضوية من البساطة والسهولة إلى التعقيد والدقّة، وهذا يتمّ بالتدريج والتطوّر الرتبي، فالكائن العضوي ينتقل من أدنى المراتب وأحطّها إلى أعلى المراتب وأرفعها، فهذا الكائن بسيط الخلية ينشطر إلى قسمين عشوائيًّا، ومن خلال قانون الانتقاء والانتخاب الطبيعي لطفرات الموروثة وبقاء الأنسب، تقوم الطبيعة بانتخاب الأصلح الذي له قابلية للحياة، وترمي بغير الأنسب ولا تنتخبه، ونتيجة هذا قامت الأنواع بالنموّ والتدرّج من رتبة إلى رتبة أخرى، ومن مرتبة إلى مرتبة أخرى، ومن بساطة إلى تركيب وتعقيد ودقّة، فبعد الكائن ذي الخلية الواحدة ظهرت كائنات ذوات خلايا وثمّ تطوّرت إلى الديدان التي من خلالها نشأت الرخويات مثل الحبّار والمحّار والحلزون، وتطوّرت إلى درجة أعلى، ونشأ منها الشوكيّات كقناديل البحر، ونجم البحر، ثمّ القشريات كالسراطين، ومنها الفقريات، ثمّ الأسماك والضفادع، ونشأ منها الزواحف كالتماسيح والأفاعي، ومنها نشأت الطيور، ثمّ الثديّيات، وبعدها مرحلة أشدّ تطوّرًا وهي الكناغر ذوات الأكياس، ثمّ إلى القرود التي سماها الصعابير أو الليامير (Lemurs)، ومن هذه نشأ الإنسان، والقرد مرحلة متطوّرة لكائن بسيط، والإنسان النسخة والتطوّر الأخير للقرد، وهذه الأنواع التي نمت جاءت من التكيّف والملاءمة مع الطبيعة ومصارعة الكوارث والظروف الصعبة. [انظر: القرطاس، نظرية داروين بين مؤيّديها ومعارضيها، ص 44؛ داروين، أصل الأنواع، ص 45 و46]

ووقع في هذه النظرية اختلاف كثير، حيث يمكن أن يقال إنّ داروين لا يعتقد بأنّ أصل الإنسان هو القرد، بل إن الإنسان والقرد لهما أصل مشترك، وعلى أي حال، فإنّ هذه النظرية صارت سببًا لعزل الدين عن الدولة وتشكيل الحكومات العلمانية، ومن آثار هذه النظرية انهيار العقيدة الدينية وظهور الإلحاد، والسبب في ذلك الانشطار العشوائي وقانون الانتخاب الأعمى، والصدفة؛ لأنّ الطبيعة عمياء وليس فيها تدبير ولا علم؛ لذلك تختار بالصدفة، ومن دون سبب، ومن هذا لا توجد حاجة للإله؛ لأنّ الطبيعة هي من خلقت الكون، يذكر ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) الذي يعدّ زعيم الملحدين في العصر الحالي في كتابه "الداروينية الجديدة.. صانع الساعات الأعمى": «الانتخاب الطبيعي هو صانع ساعات أعمى، أعمى لأنّه لا يرى أمامًا، ولا يخطّط النتائج، وليس له هدف يراه» [دوكنز، الداروينية الجديدة صانع الساعات الأعمى، ص 45]. ومن هذا عدّ هذا السبب من أهمّ الأسباب لظهور العلمانية، يقول الدكتور سامي عامري: «ويعتبر مذهب التطور الداروني المسألة

العلميـة الوحيـدة الـتي هـزّت إيمـان جماهـير النـاس بالديـن في الغـرب، وهـو المذهـب الذي عـلا صـداه نهايـة القـرن التاسـع عـشر؛ أي: بعـد رسـوخ التأصيـل الفلسـفي للعلمانيـة في المكتبـة الغربيـة» [عامـري، العلمانيـة طاعـون العـصر، ص 66]. وشـهرة النظريـة ليسـت شـهرةً علميـةً فقـط، بـل وراءهـا قـوًى عظـمى واسـتغلال مـن بعـض النفـوس المغرضـة؛ ولذلـك تـرى عالـم الأحيـاء والاس (شريـك داروين في اكتشـاف النظريـة) غـير معـروف عنـد النـاس، وهـو يقـول: «إنّ وراء عمليـة التطـوّر قـوّةً مدبّـرةً» [العوايشـة، موقـف الإسـلام مـن نظريـة ماركـس للتفسـير المـادي للتاريـخ، ص 608].

المحور الخامس: نقد الأسباب للفكر العلمانية

تقـدّم منّـا عـدّة أسـباب لنشـوء الفكـر العلمانيـة، ومـا يهمّنـا منهـا السـبب المهـم والأسـاسي في ظهـور هـذا الفكـر، ألا وهـو نظريـة التطـوّر وعلاقتهـا بالفكـر العلمانيـة، ومـن هنـا نقـول إنّ نظريـة التطـوّر ليـس لهـا أيّ علاقـة بالإلحـاد، ولا بقصـاء الديـن والحكـم الديـني للدولـة، وذلـك أنّ داروين صـبّ كلّ جهـده لإنـكار نظريـة تعـدّد الأنـواع، وقـال إنّ نشـوء كلّ الكائنـات الحيّـة مـن نـوع واحـد بسـيط، ثـمّ مـن خـلال الانشـطار العشـوائي تكـثّرت كلّ الأنـواع، ومـن خـلال الانتخـاب الطبيـعي تختـار الطبيعـة الأجـدر بالبقـاء، وهـذا الـكلام يقـع بعـد نشـأة الكـون ووجـود الكائـن البسـيط، ويمكـن أن يكـون نقيضًـا لبرهـان التصميـم العظيـم أو برهـان صانـع السـاعات، لكـنّ هـذا البرهـان ليـس هـو الدليـل الوحيـد على إثبـات الصانـع، بـل توجـد براهـين كثـيرة، تـدلّ على وجـود الإله والخالـق، كبرهـان الحـدوث والإمـكان، وصياغتـه بشـكل مختـصر كالتـالي، بـأنّ العالـم ممكـن وكلّ ممكـن يحتـاج إلى علّـة، فالعالـم يحتـاج إلى علّـة، وأيضًـا أشرف وأفضـل برهـان على إثبـات واجـب الوجـود برهـان الصدّيقـين، ومفـاده أنّ كلّ موجـود عـين الفقـر والربـط بعلّتـه؛ لأنّـه وجـود رابـط ليـس له أيّ اسـتقال مـن دون علّتـه، فثبـت أنّ العالـم الموجـود يحتـاج إلى علّـةٍ مقوّمـةٍ له وجـودًا وبقـاءً، ومـع هـذا يمكـن أن يقـال إنّ الصدفـة الـتي يذكرونهـا في الداروينيـة محالـة، بـأنّ الأجـدر بالبقـاء انتخبتـه الطبيعـة الصمّـاء العميـاء بالصدفـة، وذلـك يمكـن أن يـرد احتمـال الصدفـة لـو كان الأمـر لمـرّة واحـدة، مثـلًا طفـل رسـم لمـرّة واحـدة على الورقـة حصـان، لكـنّ لـو تكـرّر هـذا الأمـر مـرّاتٍ عديـدةً وكثـيرةً لا يمكـن أن نقـول إنّ الطفـل ليـس بعالـم وقـادر، ومـن هـذا لا يمكـن للطبيعـة أن تخلـق هـذا النظـم الدقيـق بالصدفـة؛ لأنّهـا مـادّة صمّـاء وعميـاء، فـلا ينتـج منهـا هـذا النظـم والتصميـم البديـع المتكـرّر، فثبـت للعالـم منظـم وصانـع عالـم وقديـر وحكيـم، ومـن هـذا نحصـل على نتيجـة مفادهـا أنّ الداروينيـة ليـس لهـا علاقـة بالديـن لا مـن قريـب ولا مـن بعيـد. [انظـر: الطباطبـائي، بدايـة الحكمـة، ص 67؛ نهايـة الحكمـة، ج 1، ص 245]

المحور السادس: المباني المعرفية للفكر العلماني ونقدها

أوّلًا: المنهج الحسّي

المنهج والأداة المعرفية الأساسية في الفكر العلماني المنهج الحسّي المادّي، وأصحاب هذا المنهج يرفضون كلّ شيء غير مدرك بالحسّ والمنهج والتجريبي، فالوجود عندهم مساوٍ للحسّ والمادّة، والإنسان هو هذا الجسم المادّي، وأمّا روحه وعقله فهي أشياء خرافية، وأيضًا الإله والملائكة والتجرّد وعالم العقول لا يمكن إدراكها؛ لأنّها خارج نطاق وحدود المنهج الحسّي التجريبي، يقول عالم البيولوجيا ريتشارد لونتن (Richard Lewontin) في مقال نشر له عام 1997 تحت عنوان "الأزمة العلمية المادّية": «إنّ رغبتنا في قبول دعاوٍ علمية تصادم البداهة هي المفتاح لفهم الصراع الحقيقي بين العلم وما هو فوق طبيعي. لقد انحزنا لجانب العلم رغم السخافة الظاهرة لبعض بنيانه، وعلى الرغم من إخفاقه في تحقيق العديد من وعوده المسرفة بالنسبة للصحّة والحياة، ورغم تسامح المجتمع العلمي في قبوله أمورًا غير مثبتةٍ؛ لأنّنا نحمل التزامًا مبدئيًّا، التزامًا بالخضوع للمادّية، ليست مناهج العلم ولا مؤسّساته هي التي تلزمنا بصورة ما بقبول تفسير مادّي لهذا العالم المذهل، وإنّما على العكس من ذلك، نحن ملزمون سلفًا بولائنا للأسباب المادّية لخلق هامش للبحث ومجموعةٍ من المفاهيم التي تنتج تفسيراتٍ ماديةً، مهما خالف ذلك البداهة».

[Richard c. Lewontin, Billions and Billions, in The New York Review of Books, p.28]

وبين الأمر بوضوح وصراحة هوليوك (Geroge Holyoake)، حيث قال: «إنّه سواءٌ أكانت هناك منفعة خارج هذا العالم أم لا؛ فإنّ الإنسان ملزم بتحصيل المنفعة الموجودة في العالم الدنيوي؛ فالجهد الإنساني يجب ألّا يتوجّه إلى البحث عن غايات وراء العالم» [Geroge Jacob Holyoake, English secularism,p.30]، ويقول في نص آخر: «ولّى زمن الصلاة من أجل الخلاص الدينوي ... من الواضح أنّ العون الوحيد المتاح للإنسان والسند الوحيد الذي من الممكن الاعتماد عليه هو العلم» [المصدر السابق].

وما تقدّم لا يمكن قبوله؛ وذلك لأنّه ثبت في علم الإبستمولوجيا أنّ الحس لا يدرك من الوجود والعالم إلّا الظواهر، ولا يجيب على أسئلة الإنسان الكبرى عن المبدإ والمعاد ولا السعادة والأمور المعنوية؛ لأنّ المعرفة الحسّية تتعلّق فيما يقع أمامها، ولا تدرك خارجًا عنه، وهو يدرك الأمور المفردة دون الحكم عليها؛ لأنّ التصديق حكم والحكم للعقل وليس

للحسّ؛ ولهذا إدراك الحسّ لا يوصف بالصواب والخطإ، والإنسان من خلال حسّه يدرك الأعراض والكيفيات الظاهرية للأجسام كالألوان والروائح والأشكال والليونة والخشونة، وما سوى ذلك فهو غير مدرك له، كقانون العلّيّة أو ضرورة وجود المعلول عند وجود علّته؛ لأنّها معانٍ عقلية خارجة عن أفق الحسّ، وأيضًا المعرفة الحسّيّة محدودة وضيّقة، فهي لا تدرك إلّا الأشياء في مكان وزمان وجهة خاصّة، ومن هذا فإنّ المعرفة الحسّية جزئية، فتدرك موضوعًا خاصًّا، سواءٌ كان مبصرًا أو مسموعًا أو مشمومًا أو ملموسًا أو متذوّقًا، وأهمّ خصوصية في المعرفة الحسّية، ارتباطها المباشر بالخارج، فلو انقطع الحسّ للحظة واحدة عن الخارج يتلاشى الإدراك الحسّي، ويتحوّل إلى صور خيالية. [انظر: جوادي آملي، نظرية المعرفة في القرآن الكريم، ص 126؛ سبحاني، نظرية المعرفة، ص 165]

وأيضًا التجربة فهي لا تدرك إلّا ما كان مشاهدًا، ولا تفيد اليقين إلّا من خلال قياس عقلي، يقول الحكيم السبزواري: «العلم في التجربة منوط بأمرين: أحدهما: المشاهدة، والآخر القياس الخفيّ، وهو لو كان اتّفاقيا لما كان دائميًّا ولا أكثريًّا، ثمّ يستثنى نقيض التالي لنقيض المقدّم» [السبزواري، شرح المنظومة، ص 90]. إذن التجربة تختصّ بالمحسوسات، وحدودها محدودة بحدود الحسّ، ولا يمكن أن تتعدّى حدودها إلى كشف ما وراء الطبيعة، بل عملها هو كشف الظواهر والكيفيات المحسوسة.

ثانيًا: الأنسنة (Humanism)

قام الفكر العلماني بإقصاء الإله من خلال ما اعتمد عليه من فكرة الأنسنة (Humanism)، حيث عرّفت بأنّها: «ثمرة لعصر التنوير والانقلاب على الرؤية اللاهوتية للعالم والإنسان، أي ثمرة رؤية دنيوية ومحصّلة فلسفة علمانية ودهرية، بهذا المعنى فإنّ الأنسنة هي الوجه الآخر للعلمنة، فما أنجزته الحداثة الغربية هو أنّها أحلّت سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة محلّ الذات الإلهية وهيمنتها على العالم، وذلك على عكس ما كان سائدًا في القرون الوسطى، من خلال استقلالية الذات البشرية وتحرير عقلها أو روحها» [علي حرب، الماهية والعلاقة (نحو منطق تحويلي)، ص 214]. وتنكر الأنسنة ما وراء الطبيعة، ولا توجد حياة أخرى غير الدنيا، وتوكّد على الحرية الفردية في قبال الحرّيّة الدينية [انظر: المسيري، العلمانية الجزئية والشاملة، ص 36 و48]، وأيضًا من خلال الفكر العلماني الذي هو قائم على فصل الدين عن الحياة ظهر الدين الطبيعي الربوبي الذي يعتقد بوجود الخالق لهذا الكون، لكنّه خلق الخلق وتركه إلى الطبيعية التي هي بدورها تدبّره؛ لأنّها تحتوي على نظام ميكانيكي داخلي، وهو

بـدوره مسـتغنٍ عـن العنايـة والتدخّـل الإلـهي، والخالـق لـم يرسـل الرسـل ولـم يبعـث الأنبيـاء، ؛ لأنّ إثبـات نبـوّة النـبيّ يكـون مـن خـلال المعاجـز، والمعاجـز غـير مقبولـة؛ لأنّهـا تخالـف قوانـين الطبيعـة الثابتـة؛ لذلـك يسـتحيل على الإله فعلهـا! وأيضًـا يعتقـدون بـأنّ الأديـان مـن صنـع البـشر. [انظـر: عامـري، براهـين النبـوّة، ص 31؛ الخشـن، عـالم دون أنبيـاء.. دراسـة نقديـة في الفكـر الربـوبي، ص 46]

مـا تقـدّم غـير سـليم، فـإذا مـات الإله، قـد يصبـح كلّ شيء مباحًـا، ويكـون الإنسـان هـو المعيـار والمـيزان، وإنّ الحقيقـة تصنـع ولا توجـد، ويصبـح الديـن المتحكّـم في النـاس هـو السـوق، وقانونـه الطلـب للسـلع الجيّـدة وتـرك السـلع الرديئـة، ونتيجـة ذلـك صـيرورة العالـم غابـةً، والمنطـق فيـه منطـق القـوّة والغلبـة للأقـوى. نعـم، الواقـع المشـهود في عالمنا المعـاصر يشـهد بالظاهر أنّ النظـام هـو المسـيطر على المجتمعـات الغربيـة، وأنّ العالـم الإسـلامي للأسـف هـو الذي يعيـش الـصراعات الدينيـة والطائفيـة، ولكـنّ هـذا لا ينبـغي أن يثنينـا عـن نقدهـم وكشـف سـلبياتهم الكثـيرة وسـيطرة الرأسـمالية عليهـم بسـبب ابتعادهـم عـن العقـل الإنسـاني الحقيـقي، وتقـدّم في نقـد المنهـج الحـسّيّ، بـأنّ المنهـج المتّبـع في الفكـر العلمـاني الأنسـني عاجـز عـن البحـث في خـارج حـدوده وقيـوده؛ فلهـذا لا يمكـن له أن ينـفي الحيـاة الأخرويـة ولا الإله ولا الأمـور الوجدانيـة، وإنّـه مـن دون التعاليـم الإلهيـة عاجـز عـن إدراك الحقائـق والوصـول إليهـا، وأيضًـا العقـل التجريـبي كمـا يعتقـد بـه الربوبيـون، لا يمكـن له أن ينـفي عـدم تدخّـل الإله في العالـم؛ لأنّـه ليـس مـن شـأنه؛ لأنّ حـدّ التجربـة الظواهـر الحسّـيّة والمشـاهدات، فيكـون عـدم تدخّـل الإله مـن المعرفـة الميتافيزيقيـة الخارجـة عـن حـدود التجربـة، وإثبـات تدخّـل الإله وعـدم تدخّلـه مـن أبحـاث الفلسـفة والفلاسـفة، وهـو ثابـت عندهـم ودليلهـم عليـه باختصـار، أنّ حاجـة المعلـول إلى العلّـة الإمـكان، والإمـكان لازم للماهيـة حدوثًـا وبقـاءً، ونتيجـة ذلـك يسـتحيل انفـكاك المعلـول عـن علّتـه للحظـةٍ مـن اللحظـات. [انظـر: الطباطبـائي، بدايـة الحكمـة، ص 67؛ نهايـة الحكمـة، ج 1، ص 245]

وكـذا الحرّيّـة مـن دون قوانـين الإله الذي يعلـم مـاذا يحتـاج الإنسـان ومـا لا يحتـاج عبـث، ونتيجتهـا الفسـاد؛ لأنّ الإنسـان هـو المعيـار، فتكـون جميـع أحكامـه فرديـةً وجزئيـةً شـخصيةً. [انظـر: الطباطبـائي، تفسـير الميـزان، ج 1، ص 368]

إنّ المعاجـز كمـا ثبـت في علـم الـكلام والفلسـفة غـير خارقـة لقوانـين الطبيعـة الثابتـة، فـهي معلولـة لعلّـة؛ لأنّ كلّ معلـول يسـتحيل أن يوجـد بـلا علّـة، ولكـن توجـد علـل معروفـة ومعتادة للبـشر، كالحـرارة لإحـراق هـذه الورقـة، وتوجـد علـل غـير معروفـة ومعتـادة كعلـل المعاجـز،

ومـن هـذا فجميـع معاجـز الأنبيـاء داخلـة تحـت قانـون العلّيّـة والمعلوليـة. [انظـر: السـبحاني، محاضرات في الإلهيـات، ص 254]، وأيضًـا ثبـت بـأنّ الإله أرسـل الرسـل وبعـث الأنبيـاء، وذكـروا على ذلـك عـدّة أدلّـة، نذكـر أحدهـا باختصـار، وهـو أنّ الإنسـان مـدني بالطبـع، أي لا بـد أن يعيـش في داخـل المجتمـع، وكلّ إنسـان مفطـور على حـبّ ذاتـه ونفسـه؛ لذلـك يريـد أن يجعـل كلّ شيء ملكـةً ويختـصّ بـه، وهـذا يـؤدّي إلى التجـاوز والميـل على حقـوق الآخريـن، فـلا بـدّ مـن قانـون يحكـم وينظّـم هـذه العلاقـات، وأن يكـون هـذا القانـون دقيقًـا وعادلًا لجميـع البـشر وفي جميـع الظـروف والأحـوال، ونتيجـة ذلـك لا يمكـن أن يكـون القانـون مـن صنـع البـشر؛ لأنّ جميـع البـشر يخطئـون، وهـم بالفطـرة يحبّـون ذواتهـم، فوجـب أن يكـون القانـون مـن جهـة تختلـف نـوعًا عـن البـشر، وهـو الله تعـالى، وأنـزل هـذا القانـون على أنبيائـه عليهم السلام المؤيّـدون بالمعجـزة منـه. [انظـر: الحـلي، كشـف المـراد في شرح تجريـد الاعتقـاد، ص 468؛ العبـادي، أصـول الديـن في تفسـير الميـزان، ج 2، ص 44؛ مصبـاح اليـزدي، دروس في العقيـدة الإسـلامية، ص 211]

ثالثًا: النسبية

وأيضًـا مـن نتائـج القـول بالعلمانيـة النسـبية المعرفيـة، ومـن هـذا عـرف الدكتـور العلمـاني مـراد وهبـة العلمانيـة بأنّهـا: «التفكـير النسـبي بمـا هـو نسـبي وليـس بمـا هـو مطلـق» أي: «تناول الظواهـر الإنسـانية الـتي هي نسـبية بالـضرورة بمنظـور نسـبي وليـس بمنظـور مطلـق» [مـراد وهبـة، الأصوليـة والعلمانيـة، ص 85]، فمـن خـلال مـوت الإله وفصـل الديـن عـن الدولـة وصـيرورة الإنسـان إلهًا، أصبحـت النسـبية المنهـج الذي يعتمـد عليـه أتبـاع العلمانيـة والأنسـنة، يقـول بابـا الكنيسـة السـابق بندكـت السـادس عـشر (Pope Benedict XVI): «إنّ النسـبية غـدت الفلسـفة الغالبـة، والإشـكال الأكـبر للإيمـان في زماننـا».

[Benedict XVI, Truth and Tolerance: Christian Belief and World Religions, San Francisco, p.117]

ولكـنّ هـذا الـكلام لا يمكـن قبـوله؛ لأنّ الإنسـان إذا صـار المعيـار والمـيزان للمعرفـة، فتكـون القوانـين فرديـةً وجزئيـةً وتابعـةً لـلآراء الشـخصية والذوقيـة، ولمـا يحملـه المفكّـر مـن أيديولوجيـا ثقافيـة وفكريـة، ونتيجـة هـذا فقـدان الثبـات والإطـلاق بالمعرفـة، وفقـدان الصـدق بالمعرفـة؛ لأنّـه لا يمكـن أن نكـذّب الآخـر إن خالفنـا في تفكـيره ونيلـه للواقـع؛ لأنّ كلّ مفكّـر وبحسـب اسـتعداده يـرى جانبًـا معيّنًـا مـن الحقيقـة، والآخـر كذلـك يـرى جانبًـا آخـر، ومـن هـذا تتعـدّد الحقيقـة، ويصبـح الواقـع حقائـق متعـدّدةً ومتباينـةً فيمـا بينهـا، وأيضًـا الشـكّ؛ لأنّ أيّ إنسـان لا يثـق في معـارف الآخريـن؛ وذلـك لأنّـه ينظـر مـن جهـة والآخـر ينظـر مـن جهـة أخـرى، ووصـل

الحال بأصحاب هذا القول بتهمة من يعتقد بالحقيقة المطلقة والثابتة بالتعصّب والجهل، وأيضًا النسبية لا تصلح لأن تكون منظومةً معرفيةً لإنشاء رؤية كونية عقدية؛ لأنّ الاعتقاد لا يتحقّق إلّا من خلال اليقين بالمعنى الأخصّ، الذي فيه نفي احتمال الطرف المقابل، حتّى لا يبقى أيّ شكٍّ في العقيدة، وهذا محال التحقق في النسبية؛ لأنّ المعرفة فيها قائمةٌ على ذات المفكّر الجزئية، ونتيجة ذلك الظنّ، الذي لا يغني ولا يسمن في الرؤى الكونية الاعتقادية.

[انظر: الفارابي، المنطقيات، ج 1، ص 267؛ ابن سينا، برهان الشفاء، ص 51؛ المظفر، منطق المظفر، ج 1، ص 18]

ولم تقف النسبية على الإبستمولوجيا وحسب، بل تعدّت ووصلت إلى الاخلاق، وجعلت المبدأ الأخلاقي في العالم الغربي في أزمة، وأصبحت الأخلاق عبارة عن البحث عن اللذّة والمتعة، يقول أحد الكتاب: «عندما تضيق على الأخلاق لتحصر في الأذواق الشخصية، يتبادل الناس السؤال الأخلاقي: ما الأمر الحسّيّ؟ ولمسألة المتعة: ما الشيء الممتع؟ إنّهم يثبتون رغباتهم، ثمّ يحاولون عقلنة اختياراتهم بلغة أخلاقية. وعليه ففي هذه الحال، يكون الذيل هو الذي يهزّ الكلب. وبدل أن تقيّد الأخلاق المتع (أرغب في أن أقوم بذلك الشيء، ولكن عليّ ألّا أفعله)، تُعرّف المتع الأمور الأخلاقية (أرغب في أن أقوم بذلك الشيء، وسأجد وسيلةً لجعله صوابًا). هذا الجهد في صنع القرار الأخلاقي ليس إلّا إخفاءً للمصلحة الذاتية بغلالةٍ رقيقةٍ. المتعة هي المنطق الأخلاقي».

[Francis J. Beckwith and Gregory Koukl, Relativism: Feet Firmly Planted in Mid-Air, Grand Rapids, pp.2021-]

الخاتمة

العلمانيـة مبـدأٌ يقـوم على إنـكار مرجعيـة الديـن أو سـلطانه في تنظيـم شـؤون النـاس، بعضهـا أو كلّهـا، انطلاقًـا مـن مرجعيـة الإنسـان لإدراك الحقيقيـة والمنفعـة الكامنتـين في هـذا العالـم.

مرّت العلمانية بمرحلتين، الأولى المعتدلة والثانية المفرطة.

الأسـباب الـتي أدّت إلى ظهـور العلمانيـة منهـا صراع الكنيسـة مـع العلـم، والثـاني الثـورة الفرنسـية، والثالـث نظريـة التطـوّر.

نظريـة التطـوّر ليـس لهـا أيّ علاقـة بالإلحـاد ولا تـؤدّي إلى فصـل الديـن وإقصائـه عـن الواقـع والحيـاة.

المبـاني الـتي اعتمـدت عليهـا العلمانيـة ونقدهـا، الأوّل المنهـج الحـسّي، والثـاني الأنسـنة، والثالـث النسـبية المعرفيـة والأخلاقيـة، وهي مبـاني غـير تامّـة ويمكـن نقدهـا عقليًّـا.

قائمة المصادر

ابن سينا، حسين بن عبد الله، الشفاء، ذوي القربى، قم المقدسة، ط 1، 1430 هـ.

أبو زهرة، محمد، النصرانية، الرئاسة العامة للدراسات والبحوث، الرياض، ط 1، 1404 هـ.

إسبينوزا، باروخ، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، دار التنوير، بيروت، ط 1، 2005 م.

الباز، محمدعلي، العلمانية.. جذورها وأصولها، دار القلم، سوريا، ط 1، 2008 م.

البعلبكي، منير، معجم أعلام المورد.. موسوعة تراجم لأشهر أعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين مستقاة من موسوعة المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1، 1992 م.

جريشة، علي، الاتجاهات الفكرية المعاصرة، دار الوفاء للنشر والتوزيع، المنصورة، ط 3، 1990 م.

الجهني، مانع، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية، الرياض، ط 4، 1420 هـ.

جوادي آملي، عبد الله، نظرية المعرفة في القرآن، دار الصفوة، بيروت، ط 1، 1417 هـ.

الحلي، الحسن بن يوسف، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، تحقيق العلامة حسن زاده آملي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط 1، 2012 م.

الحوالي، سفر، العلمانية.. نشأتها وتطوّرها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، دار الهجرة، المدينة المنورة، ط 1، 1999 م.

الخشن، حسين، عالم دون أنبياء.. دراسة نقدية في الفكر الربوبي، منارات، بيروت، ط 1، 2017 م.

الخولي، جمعة، الاتجاهات الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها، دار الكتب العلمية، ط 1، 1986 م.

داروين، تشارلز، أصل الأنواع، ترجمة: إسماعيل مظهر، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ط 1، 2017 م.

ديورانت، ويليام جيمس، قصة الحضارة، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1988 م.

دوكنز، ريتشارد، الداروينية الجديدة (صانع الساعات الأعمى)، ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمي، دار العين للنشر، القاهرة، ط 2، 2003 م.

سبحاني، جعفر، محاضرات في الإلهيات، أضواء الحوزة، بيروت، ط 1، 2010 م.

سبحاني، جعفر، نظرية المعرفة، مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام، قم المقدسة، ط 1، 1437 هـ.

السبزواري، هادي بن مهدي، شرح المنظومة، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط 1، 2011 م.

سروش، عبدالكريم، مدارا و مديريت، صراط، طهران، چاپ يكم، 1388 ش.

السني، محمد، الثورة وبريق الحرية، الأدهم للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 2017 م.

أحمد شبلي، المسيحية، دار النهضة المصرية، مصر، ط 10، 1998 م.

الطباطبائي، محمدحسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط 1، 1997 م.

الطباطبائي، محمدحسين، بداية الحكمة، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط 1، 2009 م.

الطباطبائي، محمدحسين، نهاية الحكمة، تحقيق غلام رضا الفياضي، انتشارات مؤسسة الإمام الخميني رحمه الله، قم المقدسة، ط 5، 1388 ش.

عامري، سامي، العلمانية طاعون العصر (كشف المصطلح وفضح الدلالة)، تكوين، الخبر ـ السعودية، ط 1، 2017 م.

العبادي، علي حمود، أصول الدين في تفسير الميزان، مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية، قم، ط 1، 2009 م.

على حرب، الماهية والعلاقة.. نحو منطق تحويلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 1998 م.

العوايشة، أحمد، موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ، المكتبة الإسلامية، عمّان، ط 2، 1984 م.

الفارابي، محمد، المنطقيات، مكتبة سماحة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم المقدسة، ط 2، 2012 م.

سيد أحمد فرج، جذور العلمانية، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ط 3، 1987 م.

القرطاس، قيس، نظرية داروين بين مؤيديها ومعارضيها، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1971 م.

قطب، محمد، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، القاهرة، ط 7، 1993 م.

القفاري، ناصر، الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، دار الصميعي، الرياض، ط 1، 1992م.

كمال، مظهر أحمد، النهضة، منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ط 1، 1979 م.

لوك، جون، رسالة في التسامح، ترجمة: منى أبو سنة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ط 1، 1997 م.

المسيري، عبد الوهاب، العلمانية الجزئية والشاملة، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 2002 م.

المسيري، عبد الوهاب، العلمانية تحت المجهر، دار الفكر، بيروت، ط 1، 2000 م.

المظفر، محمدرضا، منطق المظفر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط 1، 2006 م.

هوبزباوم، إريك، عصر الثورة أوروبا (1884ـ1989)، ترجمة: د. فايز الصياغ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 2007 م.

فولتير، قاموس فولتير، ضمن سلسلة تراث الإنسانية، دار الرشاد الحديثة، الرباط، ط 1، 1994 م.

وهبة، مراد، الأصولية والعلمانية، دار الثقافة، القاهرة، ط 1، 1995 م.

مصباح اليزدي، محمد تقي، دروس في العقيدة الإسلامية، مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع، قمّ المقدسة، ط 5، 1427 هـ.

Holyoake, George Jacob, the Oringin and Nature of Secularism, London: Watts and Co, 1896.

What Went Wrong? The Clash between Islam and Modernity in the Middle East York, 2003.

Richard c. Lewontin, Billions and Billions, in the New York Review of Books, January 9, 1997.

Benedict XVI, Truth and Tolerance: Christian Belief and World Religions, San Francisco: Ignatius press, 2004.

Francis J. Beckwith and Gregory Koukl, Relativism: Feet Firmly Planted in Mid-Air, Grand Rapids, Mich: Baker Books, 1998.